

الأسس الفكرية والآليات الفنية لدى القاضي الجرجاني (392هـ) في كتابه "الوساطة بين المتنبّي وخصومه"

The Intellectual Foundations and Technical Mechanisms of Judge Al-Jurjani (392 AH) in his book "The Mediation Between Al-Mutanabbi and His Opponents"

بوجمعة قادة *

جامعة أحمد بن بلّة - وهران (الجزائر)، kaddaboudjema@yahoo.com

أ.د. محمد بن سعيد

جامعة أحمد بن بلّة - وهران (الجزائر)

تاريخ الوصول: 2020/10/14 تاريخ القبول: 2021/01/12 تاريخ النشر: 2021/09/27

ملخص:

إذا كان التوسّط يقتضي موقفاً بين طرفين متباعدين في الرؤية؛ فإنّ المبدأ الذي اعتمد عليه الجرجاني في وساطته بين المتنبّي وخصومه هو: المقايسة (الأشباه والنظائر)، ولكنّ الإشكال المطروح يتمثّل في مدى قدرة المقايسة على المقاربة بين الأحكام التقديّة المتباينة ووجهات النظر لتحقيق أحكام متطابقة مع المقاييس التقديّة والمفاهيم المنطقية؟ وللإجابة عن ذلك حاولنا توضيح الأفكار الإستراتيجية الثلاثة التي اعتمدها الجرجاني والمتمثلة في مفهوم الوساطة، والمقايسة، وآلية تطبيقها في معالجة القضايا التقديّة المتنازع عليها، وتبيّن لنا أنّ هذه الوساطة قد آتت ثمارها الفنية من خلال الدّعوة إلى تحقيق الموضوعيّة في النّقد، وأنّ الخطأ يبقى خطأً يستوي في ذلك القدماء والمحدثون، وأنّ المتنبّي شاعر كغيره من الشعراء له من المآثر الفنيّة والمعاني البديعة ما يغطي الكثير من إساءته، وهذا المفهوم لا يقتصر عليه وحده بل يشمل الشعراء كلّهم.

الكلمات المفتاحية: (الوساطة - المقايسة - النّقد - الجرجاني - المتنبّي)

Abstract:

If the mediation requires a position between two parts far from the vision. The principle on which AL JARJANI relied in his mediation between AL MUTANABBI and his opponents is: analogy (analogies and analogues), but the problem in question is the extent of the capacity of analogy to reconcile judgments and disparate critical views to result in identical judgments with monetary standards and logical concepts. To answer this, we have tried to clarify the ideas of the three strategies adopted by AL JARJANI represented in the concept of mediation, benchmarking and the mechanism of its application to deal with contested critical issues. Thus, it clearly appears to us that this mediation paid for its technical fruits by appealing to objectivity in criticism and that the error equaled that of the ancients and the moderns; according to ALMUTANABI is a poet like other poets. He has artistic powers and wonderful meanings that cover many of his crimes and this concept is not limited to him alone, but includes them all.

Keywords: mediation - analogy - criticism - AL JARJANI - AL MUTANABI

* المؤلف المرسل

1) مقدمة:

مثّلت قضية الخصومة بين القدماء والمحدثين منعطفًا بارزًا في توجيه مسار النقد العربي، وتجلّت معالمها بوضوح في كتابين مثلاً جوهر الصّراع الذي دار بين ثلاثة من الشعراء مثّلوا مجّد التراث الشعري وهم: أبو تمام (231هـ) والبحّري (284هـ)، وأبو الطيّب المتنبي (354هـ)، أمّا الكتاب الأوّل فهو "الموازنة بين الطائيين" للحسن بن بشر الأمدي (371هـ)، والكتاب الثّاني هو "الوساطة بين المتنبي وخصومه" لعليّ بن العزيز الجرجاني (392هـ)، وأشار محمد مندور لقيمة هذين المؤلّفين بقوله: "وما يمكن أن يقال في النقد فقد قيل في هذين الكتّابين".⁽¹⁾

وتظهر قيمة كتاب "الموازنة" في تناول الخصومة النّقدية بين الطائيين (أبي تمام والبحّري)، واعتمد الأمدي (371هـ) على عمود الشعر (طريقة العرب ومعهودها في الشعر) كمقياس فيّ في تقويم الشّاعرين، والموازنة بينهما، وفي المقابل تناول الجرجاني (392هـ) الخصومة التي أثّرت حول المتنبي (354هـ) معتمداً على فكرة الوسطية القائمة على مبدأ "المقايضة" الذي فرضته طبيعة الخصومة، وحاولنا من خلال هذا البحث أن نبيّن القواعد والأسس التي أقام عليها الجرجاني مشروعه، وحاولنا أيضاً تقريب مفهوم الوسطية والمقايضة ومدى علاقتهما بالنقد؟ وما مدى قيمة الأحكام التي صاغها الجرجاني ومستوى قبولها؟ ومن أجل بيان تلك الأسس اعتمدنا على المنهج الوصفي لأنّ غاية هذا البحث تكمن في تحديد الآليات الفكرية التي اعتمدها الجرجاني (392هـ) في مشروعه النّقدي وبالأخصّ مبدأ "المقايضة" ومجال ارتباطها بأهمّ قضايا الخصومة كالتسرقات الشعريّة وغيرها من القضايا، وموقفه منها.

ونستهلّ العرض بهذه الترجمة المختصرة للقاضي الجرجاني (392هـ)، ثمّ نبيّن الآليات المعرفية التي من خلالها إقامة مشروعه النّقدي، والمتمثلة في: فكرة الوسطية، ومبدأ "المقايضة"، وموقفه من أهمّ القضايا الأدبية والنّقدية.

2) ترجمة القاضي الجرجاني:

هو أبو الحسن عليّ بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه النّاقّد (ت: 392هـ)؛ أثنى عليه الثعالبي (429هـ) بقوله "حسنة جرجان، وفرد الزّمان، ونادرة الفلك، وإنسان حدقة العلم، ودرّة تاج الأدب، وفارس عسكر الشعر، يجمع خطّ ابن مقلّة إلى نثر الجاحظ ونظم البحّري وينظم عقد الإتقان والإحسان في كلّ ما يتعاطاه".⁽²⁾ ووصفه ياقوت (626هـ) بقوله: "كان أدبياً أريباً كاملاً"،⁽³⁾ وألّف الكثير من المصنّفات التي دلّت على سعة اطلاعه؛ مثل "أحكام القرآن"، وكتاب في "الوكالة" جمع فيه أربعة آلاف مسألة، وتهذيب التّاريخ نقل الثعالبي منه فصلين في اليتيمة وذكر أنّه: "تاريخ في بلاغة الألفاظ، وصحّة الروايات، وحسن التصرّف في الانتقادات".⁽⁴⁾

والمحفوظ من هذه المصنّفات كتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، وديوانه الشعري الذي حققه سميح إبراهيم صالح، وطبعته دار البشائر بدمشق عام: (2003م)، وامتاز الجرجاني بسعة المعرفة والاطّلاع في الدين والأدب، ويصنّف ضمن دائرة النّقاد الفقهاء، ونشرع الآن في ذكر أولى اللّبنات التي أقام عليها مشروعه والمتمثلة في:

3: فكرة الوسطيّة.

يستلزم هذا المفهوم الوقوف بين طرفين يمثّلان جانب الإفراط والتّفريط غالباً وهذا ما نجده في الخصومة التي دارت بين أنصار المتنبي الذين تعصّبوا له وبين خصومه الذين تتّبّعوا عثراته وشهروا بأخطائه وقد أبان الجرجاني عن موقف الفريقين بقوله: "وما زلت أرى أهل الأدب منذ ألحقني الرّغبة بجملتهم، ووصلت العناية بيبي وبينهم في أبي الطيّب أحمد بن الحسين المتنبي فئتين: من مطنب في تقرّظه منقطع إليه بجملته منحطّ في هواه بلسانه وقلبه يلتقي مناقبه إذا ذكرت بالتّعظيم ويشيع محاسنه إذا حكيت بالتّفخيم ويعجب ويعيد ويكرّر ويميل على من عابه بالزّراية والتّقصير، ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتّجهيل، فإنّ عشر على بيت مختلّ النّظام أو نبّه على لفظ ناقص عن التّمام التزم من نصرة خطئه وتحسين زلله ما يزيله عن موقف المعتذر ويتجاوز به مقام المنتصر، وعائب يروم إزالته عن رتبته فلم يسلم له فضله ويحاول حطّه عن منزلة يؤّاه إيّاها أدبه فهو يجتهد في إخفاء فضله وإظهار معاييه وتتبع سقطاته وإذاعة غفلاته، وكلا الفريقين إمّا ظالم له أو للأدب فيه وكما أنّ الانتصار جانب من العدل لا يسدّه الاعتذار فكذلك الاعتذار جانب هو أولى من الانتصار، ومن لم يفرّق بينهما وقفت به الملامة بين تفرّيط المقصّر وإسراف المفرط، وقد جعل الله لكلّ شيء قدراً".⁽⁵⁾

نلاحظ من خلال هذا النصّ أنّ طبيعة الخصومة فرضت فكرة الوسطيّة التي تعني في جوهرها العدل والتّقارب بين طرفين متناقضين، ويكثر تفعيل هذا المصطلح في تحقيق التّقارب الاجتماعي بين الأسر والأفراد وفي المجال السّياسي بين الجماعات والهيئات والدّول، ومن محاسن الوسطيّة أنّ الشّريعة الإسلاميّة وصفت بشريعة العقلاء وأنّ الله تعالى مدح الأُمّة المحمّديّة بقوله {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} الآية (143) سورة البقرة، وبنى الإمام الشّاطبي (790هـ) تصوّره في "الموافقات" على فكرة الوسطيّة وأكّد على أنّه منهج أهل السنّة الذي وقف وسطاً بين إفراط الباطنيّة (التعمّق في المعاني بلا دليل) وتفرّيط الظّاهريّة (الوقوف على ظاهر النّصوص)، نقوم الآن ببيان المفهوم اللّغوي والاصطلاحي للوسطيّة، ثمّ نذكر آليّة تكييفه في نظر الجرجاني.

قال ابن فارس (392هـ): "الواو والسّين والطّاء بناء صحيح، يدلّ على العدل والتّصف، وأعدل الشّيء:

أوسطه ووسطه"،⁽⁶⁾ وجاء في القاموس "الوسط محرّكة من كلّ شيء: أعدله {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} أي

عدلا خيارا... والوسيط: المتوسّط بين المتخاصمين، وتوسّط بينهم: عمل الوساطة، وأخذ الوسط بين الجيّد والرّديء".⁽⁷⁾

نلاحظ أنّ المدلول اللّغوي للفظ (الوساطة) يطلق على العدل وخيار الأمور.

أمّا في الاصطلاح فيراد بها "سلوك محمود - ماديّ أو معنوي - يعصم صاحبه من الانزلاق إلى طرفين مُتقابلين - غالباً - أو مُتفاوتين، تتجاذبهما رذيلتا الإفراط والتّفريط، سواء في ميدان دينيّ أم دنيويّ".⁽⁸⁾

حيث يعمل المتوسّط على تحقيق ميزان المصالح والمفاسد ورعاية الصّواب والمقاصد، ودفع الاعتراض بتفنيد الحجّة بما هو أقوى منها من حيث الثّبوت والصّحة والدّلالة، وهذا ما سعى الجرجاني لتحقيقه من خلال عرضه لشعر المتنبي ومناقشة الاعتراضات المختلفة في مجال اللّغة والنحو والبلاغة وأبيات المعاني والسّركات الشعريّة، ومثّل على ذلك بمحاسنه وساق مجموعة هامة من فرائد شعره وقلائد معانيه مستعينا بمنهج المقايسة الذي اعتمده كمبدأ أساسي وجوهري في محطّات دفاعه عن المتنبي، ونشير هنا لمسألة هامة وهي أنّ كتاب الوساطة ليس مقتصرًا على شعر المتنبي فحسب "بل إنّهُ عَرَضُ للأصول الأدبية الّتي عرفت في عصره، وحلّل أشعار القدماء والمحدثين، وأورد كثيرا من محاسنهم وعيوبهم، وأبان ما شاع فيها من تعقيد وغموض وأخذ وسرقة واستعارة حسنة أو رديئة".⁽⁹⁾

وبهذا الاعتبار دافع الجرجاني عن المحدثين، وساهم في توسيع نظرية ابن قتيبة (276هـ) التي طرحها في كتاب "الشعر والشّعراء" حيث ألحّ على ضرورة إنصاف المحدثين ومراعاة إبداعهم فقال: "فكلّ من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه ولم يضعه عندنا تأخّر قائله أو فاعله ولا حادثة سنّه، كما أنّ الرّديء إذا أورد علينا للمتقدّم أو الشّريف لم يدفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدّمه".⁽¹⁰⁾

وقد وظّف الجرجاني آليّة الوسطيّة باحترافيّة وإنصاف، كما استعان بالحجج المنطقيّة لإثبات مواقفه النّقديّة ولإقناع المعارض؛ من ذلك قوله: "ودونك هذه الدّواوين الجاهليّة والإسلاميّة فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه، إمّا في لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه أو إعرابه؟ ولولا أنّ أهل الجاهلية جدّوا بالتقدّم واعتقد النّاس فيهم أنّهم القدوة والأعلام والحجّة لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة مستزلة، ومردودة منفية؛ لكنّ هذا الظنّ الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم ونفى الظنّة عنهم؛ فذهبت الخواطر في الذّب عنهم كلّ مذهب، وقامت في الاحتجاج لهم كلّ مقام".⁽¹¹⁾

فيمثّل هذا النصّ بعدا إستراتيجيّا هامّا في سير الحركة النّقديّة مشيرا إلى أنّ مهمّة النّقد ليست مقصورة على تتبّع الأخطاء وانتقاص الإبداع، وأنّ الإبداع ليس مقصورا على المتقدّمين، وقرّر حقيقة عقليّة أنّ لكلّ شاعر محاسن

ومساوئ فكما احتملت للمتقدمين من الشعراء والتمس الناس لهم المخارج فالمحدثون أيضا ينبغي أن يعاملوا بنوع من الانفتاح وأن توجه أعمالهم حسب مقتضيات التأويل، فالخطأ - في نظر الجرجاني - تبقى صورته قائمة لا عبرة بمصدره، فإن احتمل للكل، وإلا فسدت الوسيلة وضاع المقصد.

ومن بين الأمور التي لفتت انتباهنا في أسلوب الجرجاني غلبة الوضوح، وإطراق الفكرة من جميع الجوانب قصد استمالة الخصم والتلطّف في الخطاب؛ مثل قوله: "أنا أقول - أَيْدُكَ اللهُ - أنّ الشّعْرَ علمٌ من علوم العرب".⁽¹²⁾

ومن لوازم الوسيطية الناجحة أن تستخدم فيها إستراتيجية الخطاب التّواصلي وإستراتيجية الإقناع بالإضافة إلى إستراتيجية التّضامن، لأنّ فقدان الوسيطية لنوع منها يؤديّ إلى فرض سلطة الخطاب والهيمنة على مشاعر أحد الطّرفين ممّا يخرج الوساطة عن مسارها، ويضعف من تقبّل نتائجها، كما وظّف بعض مصطلحات القضاء مثل قوله: "عجّلْتُ بالحكم قبل استفتاء الحجّة، وأبرمت القضاء قبل امتحان الشّهادة".⁽¹³⁾

ونلاحظ في هذا التّوجّه القضائي شكلا آخر للمحاجة التي تكون بين المتّهمين أمام القاضي حيث يعمل كلّ طرف على إثبات دعواه، وإلزام الخصم بالحجّة والدليل، ولهذا امتزجت وساطة الجرجاني بسلطة القضاء التي تشعّرن وتلزمنا في آن واحد على ضرورة الالتزام بالأحكام الصّادرة باعتباره من لوازم القضاء، وسعى لتحقيق مبدأ "المقاصّة" بخلاف الفتوى التي لا يجبر فيها المستفتي على الحكم، وقد أعجب محمّد مندور بمنهج الجرجاني حيث قال: "روح القضاء واضحة في كتاب الوساطة واضحة في المنهج وواضحة في الأسلوب، روح القضاء هي العدل والتّواضع والتّثبت؛ روح قريّة النّسب إلى الرّوح العلميّة بل نحن لا نرى بين الرّوحين فرقا فهما من معدن واحد كما أنّ مظاهرها واحدة".⁽¹⁴⁾

هذه بعض المميّزات لشكل الوسيطية من حيث التّنظير، أمّا من جانب التّطبيق فقد استخدم الجرجاني مبدأ "المقايضة" الذي يمكن اعتباره الإجراء الفعلي والتّطبيقي لعملية الوساطة، وهذا ما سنبيّنه في النقطة الموالية:

4) مبدأ المقايضة:

مبدأ الشّيء أوّله ومصدره، ويطلق في الاصطلاح على: "النّظام الذي يضعه المرء أو المجتمع في قضية ما، أو القضية المطروحة للدراسة ممّا لا يرقى إليها الشكّ، أو القاعدة لدراسة الأخلاق أو الأدب أو السّياسة، وصاحب المبدأ هو الذي يضع ما يتبنّاه نصب عينيه ولا يحيد عنه".⁽¹⁵⁾

وقد التزم الجرجاني بهذا المبدأ في جميع محطّات الوساطة، وفعل المقايضة هو قيس وتعني المشاركة أي: مشاركة الفرع لأصله في الحكم، وعلى هذا الاعتبار فكلّ قياس هو من قبيل الشّبه، والمقايضة التي وظّفها الجرجاني خاصّة هي: قياس الأشباه والنّظائر، فقايس بين محاسن المتنبّي ومساوئه من جهة، ثمّ قايس أخطاء المتنبّي على أشباهها من

أخطاء فحول الشعراء، تحقيقاً لمبدأ المقاصّة ولتفعيل الموضوعيّة في النّقد؛ ولأنّ طبيعة الخصومة هي التي فرضت ذلك الطّرح المنطقي، حيث سعى خصوم أبي الطيّب لإبطال شاعريّته وإسقاط إبداعه محتجّين بذات الأخطاء التي وقع فيها غيره من الشعراء، وتمثّل المقايضة إذن المنهج الأساسي الذي اعتمده الجرجاني في وساطته، ولكنّ السّؤال المطروح "هل تصحّ المقايضة في كلّ الأحيان منها معتمداً؟" (16)

والذي -يظهر لنا- أنّ طبيعة الموضوع هي التي تتحكّم في تحديد مدى فاعليّة المقايضة وصحّتها، وبالنّظر لطبيعة الخصومة بين المتنبي وناقديه فالمقايضة هي الإجراء الجوهرية والطّريق النّاجح الذي يتوافق ومدى فكرة الوسطيّة، ونقوم الآن بتعريف المقايضة ثمّ نمثّل على أشكالها وفق تصوّر الجرجاني وموقفه منها:

جاء في معجم المقاييس "القياس هو تقدير الشّيء بالشّيء، والمقدار مقياس، تقول: قايست الأمرين مقايضة، وقياساً" (17) فالمعنى اللّغوي للقياس هو التّقدير والمساواة.

أمّا في الاصطلاح فهو "عبارة عن الاستواء بين الفرع والأصل في العلّة المستنبطة من حكم الأصل" (18) ويؤخذ من التعريف أنّ أركان القياس أربعة: الأصل (المقيس عليه)، والفرع (المقيس)، والعلّة، والحكم، وينقسم القياس باعتبار أصله إلى ثلاثة أقسام:

- أ/ قياس علّة: وهو الذي تكون علّته صريحة؛ مثل قياس التّبيذ على الخمر.
 - ب/ قياس دلالة: لا تذكر فيه العلّة بل الوصف الملازم لها؛ كقياس التّبيذ على الخمر برائحته المشتدّة.
 - ج/ قياس الشّبه: يطلق الشّبه في اللّغة على "الشّبه والشّبه والمثّل، والجمع أشباه، وأشبه الشّيء الشّيء ماثله... المتشابهات المتماثلات... شبه إذا ساوى بين شيء وشيء" (19)
- وعند الأصوليين هو "إلحاق فرع مردّد بين أصليين بأكثرهما شبهاً به" (20)

ومثّلوا على ذلك بتردّد العبد بين الآدميّة والثّمنيّة؛ فمن جهة هو مأمور بالصّلاة والعبادة، ومن جهة أخرى يباع ويقوم ويورث، ويكون الشّبه في الصّورة كقياس الخيل على الحمير والبغال في عدم وجوب الرّكاة، ومثال الشّبه في الحكم كقياس الوضوء على التيمّم في وجوب النّية، وانطلاقاً من هذه المعارف الفقهيّة والأصوليّة للقياس وظفها الجرجاني في النّقد الأدبي، وتعني المقايضة في الأدب "النّظر إلى شيء بالقياس إلى شيء آخر والحكم عليه، وهي من معاني حرف الجرّ (في) نحو الآية (فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) الآية (38) سورة التّوبة، أي: بالنّسبة للآخرة" (21)

وقد خصّ الجرجاني أبواباً من الوساطة عرض فيها أخطاء الشعراء في الألفاظ والمعاني، والبديع والبيان، وفي النحو واللغة، والإفراط والغلوّ والسرقات الشعرية، وقرّر أنّ اختلاف المستوى الإبداعي بين الشعراء لا ينقص من قيمة الشاعر، ومثّل بشعر أبي نواس قائلاً: "ولو تأملت شعر أبي نواس حقّ التأمل، ثمّ وازنت بين انحطاطه وارتفاعه، وعددت منفيه ومختاره، لعظمت من قدر صاحبنا ما صغرت، ولأكبرت من شأنه ما استحققت". (22)

وتارة يحتجّ لأبي الطيّب المتنبي بما تقتضيه قواعد اللغة ومقاييس النحاة والنقاد، ومثّل على هذا الجانب بدفعه لاعتراض الخصوم على أبي الطيّب في قوله:

أَبْعَدُ بَعْدَتْ بَيَاضًا لَا بَيَاضَ لَهُ لَأَنْتَ أَسْوَدَ فِي عَيْنِي مِنَ الظُّلَمِ. (23)

قال الجرجاني مبيناً وجه الاعتراض: "إنّه أنكر أسود من الظلم، ولم يعلم أنّه قد يحتمل هذا الكلام وجوها يصحّ عليها وأنّ الرّجل لم يرد أفعل التي للمبالغة". (24)

ولا يقع التعجّب من الألوان لأنّه لا خفاء فيها يوجب استعظام زيادة فيها، والمعنى الذي قصده المتنبي "أنّ بياض الشّيب ليس ببياض فيه نور وسرور، وهو أشدّ سواداً من الظلم؛ لما يورى به من حلول الأجل، وقطع الأمل". (25)

ولم يبيّن الجرجاني تلك الوجوه التي يحتملها معنى أبي الطيّب لأنّها معروفة عند النحاة وقد أجاز الكوفيين التعجّب من الألوان، وقال ابن الأنباري (577هـ) في الإنصاف: "ذهب الكوفيون إلى أنّه يجوز أن يستعمل ما أفعله! في التعجّب من البياض والسّواد خاصّة من بين سائر الألوان، نحو أن تقول: هذا الثّوب ما أبيضه! وهذا الشعر ما أسوده! وذهب البصريون إلى أنّ ذلك لا يجوز فيهما كغيرهما من سائر الألوان، أمّا الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا إنّما جوّزنا ذلك للنقل والقياس، أمّا النقل فقد قال الشاعر:

إِذَا الرِّجَالُ شَتَّوْا وَاشْتَدَّ أَكْلُهُمْ فَأَنْتَ أَبْيَضُهُمْ سِرْبَالٌ طَبَّاحٌ. (26)

وفي الاحتجاج قال: أَبْيَضُهُمْ، وإذا جاز ذلك في أفعلهم جاز في ما أفعله! وافعل به! لأنّهما بمنزلة واحدة". (27)

نلاحظ أنّ الجرجاني قد راعى في مقايسته مذهب الكوفيين الذين يحتجون بالشّاهد الثّابت والمسموع عن العرب، وقول الجرجاني: (إنّ الرّجل لم يرد أفعل التي للمبالغة) لأنّ "أسود هنا واحد السّود، والظلم الليالي الثّلاث في آخر الشّهر يقول لبياض شبيه: أنت عندي واحد من تلك الظلم كقول أبي تمام:

لَهُ مَنْظَرٌ فِي الْعَيْنِ أَيْضُ نَاصِعٍ وَلَكِنَّهُ فِي الْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعٍ. (28)

وفي مقايسته في مجال المعاني والألفاظ والبديع وعناصر عمود الشعر وقضية السرقات وغيرها من قضايا النّقد قام الجرجاني بسرد شواهد من محاسن المتنبي وإبداعه ليدفع بها مساوئه وأخطائه تحقيقاً لمبدأ "المقاصّة" الذي

جعلته هدفا إستراتيجيا وجهه ركائبه المعرفية نحوه، وكان غايته المنشودة التي وجهه المقايسة اتجاهها يقول الجرجاني في هذا المضمار "وإنما نقول: إنه عيب مشترك وذنب مقتسم فإن احتمل فللكل، وإن ردّ فعلى الجميع، وإنما حظّ أبي الطيّب فيه حظّ واحد من عرض الشعراء، وموقعه منه موقع رجل من المحدثين".⁽²⁹⁾

وهذا الطرح المنطقي الذي عرضه الجرجاني فرضته طبيعة الخصومة التي حاول التوسط بين أطرافها، ولما اشتمل عليه من توحّي الإنصاف والموضوعية في النقد لأنّ مهمّة النقد الفني إبراز وجوه الإبداع ومحاولة التّهوض بالعمل الأدبي إلى مراتب الجودة والإتقان، وكانت "الغاية التي يرمي إليها الجرجاني من عرض عيوب القدامى ومساوئ شعرهم ليست للتشهير بهم، وإنما لالتماس العذر للمتنبي الذي ألصقت به تهم كثيرة من هذا القبيل".⁽³⁰⁾

ويظهر لنا التّحامل الدّاتي البعيد عن الموضوعية من خلال عناوين المصنّفات التي حاول أصحابها التّيل من شاعرية المتنبي مثل الحاتمي (388هـ) في كتابه "الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيّب وساقط شعره"، والصّاحب (385هـ) في مصنّفه "الكشف عن مساوئ المتنبي"، و "المنصف للسّارق والمسروق من المتنبي" للحسن بن وكيع (393هـ)، وغيرها من المصنّفات التي كانت الغاية منها "تجريح المتنبي فحسب".⁽³¹⁾

وقد أسّس الجرجاني معالم مقايسته بناء على تصوّره وموقفه من بعض القضايا التّقديّة والأدبيّة، وهذا ما سنشير إليه في المحطّة الموالية:

5) موقف الجرجاني من القضايا الأدبيّة والتّقديّة.

قام الجرجاني بتحديد موقفه من النقد السّائدة في القرن الرّابع الهجري، وحاول تحديد مميّزات النّاقذ الحصيف لكثير الأدعياء الذين انتحلوا هذه الصّناعة حتّى أضحت مهنة من لا مهنة له على حدّ تعبير الجرجاني، واقتصرت مهمّة النقد عندهم في إبداء العيوب والتّشهير بالأخطاء، وطمس محاسن الإبداع، والحطّ من قدر الشعراء، ولخطورة الموضوع استفتح الجرجاني عرضه بذكر مراتب النّقاد وأشكالهم، وذمّ المتعصّبين منهم وأصحاب الأهواء قائلا: "ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف، أو تخرج في بابه إلى الإسراف، بل تتصرّف على حكم العدل كيف صرفك، وتقف على رسمه كيف وقفك، فتنتصف تارة وتعتذر أخرى، وتجعل الإقرار بالحقّ عليك شاهدا إذا أنكرت ... وأنهم خصمك ما علمه وتيقّنه، وشكّ فيما حفظته وأتقنه، وارتاب بشهوده وإن عدلتهم المحبة وجبن عن إظهار حججه وإن لم تكن فيهم غميمة".⁽³²⁾

فاللبّنة الأولى التي اهتمّ بها الجرجاني تحديد شكل المدّعين ولا بدّ أن يتّصفوا بالموضوعية، فالنقد الدّاتي البعيد عن الفنيّة والموضوعية لا يصلح أن يكون طرفا في الوساطة؛ وهذا التّوجّه الجديد الذي أكّد عليه الجرجاني يمثّل نقلة نوعية في تقويم مسار النقد الفني، وبناء الأرضيّة الفعلية لنظرية النقد الأدبي، ونجد اهتمام النّقاد الغربيين في العصر

الحديث بضرورة تنقيح العملية النقدية من الذاتية والتوجهات المذهبية "وكان من المتحمسين لها الناقد الفرنسي (سانت بيغ) الذي اشتهر بما عرف باسم (نظرية النقد المحايد)، وهي نظرية تقوم على ثلاثة أسس: الحيدة التامة في النقد، وعدم التقييد بمذهب معين، وعدم الادعاء الفني". (33)

وأشار الجرجاني إلى أن أدنى مراتب النقد هو الاهتمام باضطراب الأوزان وإقامة الإعراب، والأداء اللغوي لأن هذه المسائل - في نظره - لا تمثل جوهر النقد الذي يُعنى بجانب التصوير الفني، ووصف غاية النقد عند هؤلاء بقوله: "ثم كان همّه وبغيته أن يجد لفظاً مروقاً، وكلاماً مزوقاً قد حشي تجنيساً وترصيعاً، وشحن مطابقة وبديعاً، أو معنى غامضاً قد تعمق فيه مستخرجه وتغلغل إليه مستنبطه، ثم لا يعبأ باختلاف الترتيب واضطراب النظم، وسوء التأليف وهلهلة النسخ ولا يقابل بين الألفاظ ومعانيها، ولا يسبر ما بينهما من نسب، ولا يمتحن ما يجتمعان فيه من سبب، ولا يرى اللفظ إلا ما أدي إليه المعنى، ولا الكلام إلا ما صوّر له الغرض، ولا الحسن إلا ما أفاده البديع، ولا الرّونق إلا ما كساه التصنيع وقد حملني حبّ الإفصاح عن هذا المعنى إلى تكرير القول فيه وإعادة الذكر له، ولو احتمل مقدار هذه الرسالة استقصاؤه واتسع حجمها للاستيفاء له لاسترسلت فيه ولأشرفت بك على معظمه". (34)

كما استثنى أيضاً الشعراء من دائرة النقد الفني لإيمانه بأن ميدان النقد والشعر متباينان، واحتجّ لرأيه - مع كونه شاعر - أن الشعر صناعة ومعاناة ومكابدة؛ ولذلك لجأ الشاعر إلى غيره في تقويم إبداعه كما حدثنا مصادر الأدب عن احتكام الشعراء للنابغة الذبياني، ومحاكمته بين الشعراء، ولو أنهم أحسنوا صناعة النقد لما احتكموا لغيرهم ممن ليسوا شعراء؛ مثل أمّ جندب وحكمها لعلقمة على امرئ القيس، واحتجّ أيضاً بأن الأخطاء الفنية التي وقع فيها الشعراء إنما نبههم عليها من لا يتعاطون الشعر غالباً، كما وقع للنابغة حينما نبّه أهل المدينة على الإقواء، والسبب الذي دفع الجرجاني على توسيع النقاش في طبيعة النقد وأوصاف النقاد هو طبيعة الجدل القائم بين خصوم المتنبي وأنصاره، فكان لزاماً عليه تحديد طرفي الإفراط والتفريط ومن ثمّ يقوم بتحديد آلية التقارب والتوسط بين الطرفين.

والأحكام النقدية عند الجرجاني نوعان :

أ/ أحكام مؤسّسة على المقاييس والقواعد، وهي المعبر عنها بعمود الشعر، قال الجرجاني: "وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحّته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلمّ السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته، ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، ونظام القريض". (35)

فجعل للمعاني والألفاظ قيوداً منها الوضوح وعدم الاضطراب، وأن يكون يدلّ اللفظ على المعنى دلالة مطابقة، وعرف أقسام البيان كالتشبيه والاستعارة، وألوان البديع كالطباق والجناس، كما كانت له اجتهادات في الكثير من القضايا البلاغية كقوله "الاستعارة ما استكفي بها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها وملاكها تقريب الشبه، ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر".⁽³⁶⁾

وبناء على تصوّره للاستعارة ردّ ما ادّعه بعضهم من الاستعارة في قول أبي نواس:

وَالْحُبُّ ظَهَرَ أَنْتَ رَاكِبُهُ
فَإِذَا صَرَفَتْ عِنَانَهُ انْصَرَفَا.

قال الجرجاني: "ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة، وإنما معنى البيت أنّ الحبّ مثل ظهر، أو الحبّ كظهر تديره كما شئت إذا ملكت عنانه؛ فهو إمّا ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء".⁽³⁷⁾

ومثّل على الطباق والتجنيس المحمود منهما والمستكره، ورأى أنّ خير الشعر الذي توسّط بين المطبوع والمصنوع وجعل شعر المتنبي من هذا القبيل، وذكر أنّ التكلف يذهب برونق الشعر، ويجعل الصورة الشعرية في دائرة الغموض ومثّل على ذلك بشعر أبي تمام ووازن بين المطبوع منه والمصنوع.

ب/ أحكام ناشئة من الدّوق ولا يتسّى ذلك إلّا لأهل الخبرة والممارسة، واشترط أن يكون عصارة العقول الصّافية والمواهب السّليمة، فالنّقد في تصوّر الجرجاني وسّط بين الدّوق المدّرب ومجموعة المعايير والمقاييس، ومثّل على تفاوت الدّوق بما تستحسنه الحواس وما يؤثّر في النّفس وما يتقبّله الدّوق فقال: "قد ترى الصّورة تستكمل شرائط الحسن وتستوفي أوصاف الكمال وتذهب في الأنفس كلّ مذهب، وتقف من التّمام بكلّ طريق، ثمّ تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن والتّمام الخلقة وتناسف الأجزاء وتقابل الأقسام وهي أحظى بالخلابة وأدنى إلى القبول وأعلق بالنّفس وأسرع مازجة للقلب، ثمّ لا تعلم - وإن قايست واعتبرت ونظرت وفكرت - لهذه المزيّة سببا ولما خصّت به مقتضبا".⁽³⁸⁾

ثمّ قال على سبيل الحوار الجدلي: "ولو قيل لك كيف صارت هذه الصّورة وهي مقصورة عن الأوّل في الأحكام والصّنع، وفي ترتيب الصّيغة وفيما يجمع أوصاف الكلام وينتظم أسباب الاختيار أحلى وأرشق وأحظى وأوقع لأقمت السّائل مقام المتعنّت المتجانف، ورددته ردّ المستبهم الجاهل، ولكان أقصى ما في وسعك وغاية ما عندك أن تقول: موقعه في القلب ألطف، وهو بالطبع أليق، ولم تعد مع هذه الحال معارضا يقول لك: فما عبت من هذه الأخرى؟ وأي وجه عدل بك عنها؟ ألم يجتمع لك كيت وكيت وتكامل فيه ذيه وذيه؟ وهل للطاعن إليها طريق؟ وهل فيها لغامز مغمز؟ يحاجّك بظاهر تحسّنه التّواظر، وأنت تحيله على باطن تحصّله الصّمائر".⁽³⁹⁾

وقد اتفق الجرجاني والآمدي على ضرورة تحكيم الذوق المصقول بصفاء الطبع، وشدّة الفطنة، واعتباره الفيصل في الحكم على النصوص الأدبية "حتى إذا جاء عبد القاهر لم يقف عند هذا الحد؛ بل رأى أنه لابد لكل كلام تجده حسنا من أن يكون لهذا الحسن مصدر معلوم وعلة معقولة، وأن يكون هناك سبيل إلى التعبير عنه، ودليل على صحة ما ادّعيته".⁽⁴⁰⁾

والذي دفع عبد القاهر (371هـ) على ضرورة تعليل الأحكام هو توجهه اللغوي المتمثل في نظرية النظم، ولكن هذه النظرية تحتاج هي الأخرى لتساند الذوق والمعايير، وبهذا السبب - معيارية اللغة والبلاغة - رفض الجرجاني والآمدي التقسيم المنطقي الذي عرضه قدامة بن جعفر (321هـ) في كتابه "نقد الشعر" وانتقد الجرجاني منهجه الشكلي قائلا "إنّ الشعر لا يجب إلى النفوس بالنظر والجدل، وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة، وقد يكون الشيء محكما ولا يكون مقبولا، ولكل صناعة أهل يرجع إليهم في خصائصها، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها، وكثير من شؤون النقد تمتحن بالطبع لا بالفكر".⁽⁴¹⁾

ثم أشار الجرجاني للأمور الخاصة بعملية إنتاج الشعر، فقال: "إنّ الشعر علم من علوم العرب؛ يشترك فيه الطبع والرواية و الذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان".⁽⁴²⁾

نلاحظ أنّ الشعر يقوم على أربعة عناصر هي: الطبع، والمراد به الموهبة والملكة الفطرية، كما يطلق على قرب المأخذ، وسهولة التأني، ثم الذكاء: ومثل له بالتفاوت الحاصل بين أفراد القبيلة الواحدة في الشعر فقال: "تجد الرجل منها شاعرا مفلقا، وابن عمه وجار جنباه ولصيق طنبه بكيتا مفحما، وتجد فيها الشاعر أشعر من الشاعر، والخطيب أبلغ من الخطيب، فهل ذلك إلّا من جهة الطبع والذكاء وحدّة القريحة والفطنة؟ وهذه أمور عامّة في جنس البشر لا تخصيص لها بالأعصار، ولا يتّصف بها دهر دون دهر".⁽⁴³⁾

وتظهر أهميّة الذكاء في تسريع الفهم، وإحياء ملكة الإبداع، وعن طريقه "يلمح الشاعر ما لا يلمح غيره من الناس، ويدرك من الصّلات والمفارقات ما لا يدركه سواه، وبذلك يتميّز عن غيره ويتفرد بألوان من الإحساسات والمشاعر".⁽⁴⁴⁾

وإذا حصل الشاعر الطبع والذكاء فلا بدّ له من الرواية "وقد كانت العرب تروي وتحفظ ويعرف بعضها برواية شعر بعض كما قيل: إنّ زهيراً كان راوية أوس، وأنّ الخطيئة راوية زهير، وأنّ أبا ذؤيب راوية ساعدة بن جؤيّة، فبلغ هؤلاء في الشعر حيث تراههم، وكان عبيد راوية الأعشى، ولم تسمع له كلمة تامّة كما لم يسمع لحسين راوية جرير، ومحمد بن سهل راوية الكميّة، والسائب راوية كثير غير أنّها بالطبع أشدّ ثقة، وإليه أكثر استئناسا".⁽⁴⁵⁾

ثمّ يستعين بالعنصر الرابع المتمثّل في الدّربة لتنمية ملكته الشعريّة، وصقل الطّبع بالذكاء والرواية، أمّا بالنّسبة لاختلاف لغة الشعر فقد أرجع الجرجاني ذلك لاختلاف الطبائع والأغراض والبيئة، واستشهد بعديّ بن زيد الذي رَقّ طبعه ولانَ لسانه "وتجد شعر عديّ-وهو جاهلي- أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤية وهما آهلان، لملازمة عديّ الحاضرة وإبطانه الرّيف وبعده عن جلافة البدو، وجفاء الأعراب".⁽⁴⁶⁾

ويعتبر الجرجاني من أوائل النّقاد الذين نبّهوا على أثر البيئة في عمليّة الإبداع، وسبق بذلك النّاقد (تين) Taine (ت: 1893م)، الذي ربط علاقة المبدع بالبيئة والجنس وتأثير الماضي على الحاضر، والمقصود بالبيئة ذلك الاشتراك الثقافي والاجتماعي وطبيعة الوسط الجغرافي، كما نجد في العصر الحديث أيضا محاولات (مدام دي ستيل) التي توصّلت "إلى أنّ الجماعة المتحضّرة أدبها متحضّر، والجماعة المهذّبة الذّوق أدبها مهذّب العبارة، وهذا ما قاله الجرجاني قبلها بتسعة قرون من الزّمان".⁽⁴⁷⁾

ومن أبرز القضايا النّقدية التي أفصح الجرجاني عن مضمونها بوضوح: قضية فصل الدّين عن الشعر وقوله "فلو كانت الدّيانة عارا على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخّر الشّاعر، لوجب أن يحى اسم أبي نواس من الدّواوين، ويحذف ذكره إذا عدّت الطبقات، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الرّعي وأضرابهما ممّن تناول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعاب من أصحابه بكما خرسا وبكفاء مفحمين؛ ولكنّ الأمرين متباينان، والدّين بمعزل عن الشعر".⁽⁴⁸⁾

ويمثّل هذا الرّأي توجهه دعاة الفنّ للفنّ مقياس تحكيم الرّؤية الجمالية وإلغاء كلّ ما هو من قبيل المعارف أو الموروث، وهذا المقياس يتّفق مع الاتجاه الأدبي الحديث مذهب الفنّ للفنّ (l'art pour l'art).

وقد كان للجرجاني مواقف خاصّة من قضية السرقة باعتبارها جوهر الصّراع النّقدي الذي دارت حوله خصومة المتنبيّ، بخلاف نظرة الأمدي (371هـ) وموقفه منها حيث قال: "إنّ من أدركت من أهل العلم بالشّعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوئ الشّعراء وخاصّة ولا لمتأخّرين إذا كان هذا بابا ما تعرّى منه متقدّم ولا متأخّر".⁽⁴⁹⁾

وأجمع النّاقدان على أنّه لا سرقة في المعاني المشتركة بين النّاس وما يجري وفق طباعهم، وإنّما السرقة في "المبتدع المخترع"⁽⁵⁰⁾، وحذّر الجرجاني من تعاطي موضوع السرقة لدقّة مسلكها وتشعب موضوعها ولأنّه "باب لا ينهض به إلّا النّاقد البصير، والعالم المبرّز، وليس كلّ من تعرّض له أدركه، ولا كلّ من أدركه استوفاه واستكمّله".⁽⁵¹⁾

وعرض الجرجاني في الوساطة نماذج كثيرة من سرقات الشعراء وكانت له مواقف منها؛ من ذلك قول أبي تمام يمدح أبا سعيد محمد الثغري:

عَرَّبْتُهُ الْعَلَاءَ عَلَى كَثْرَةِ الْأَهْدِ
لِ فَأَضْحَى فِي الْأَقْرَبِينَ جَنِيْبَا
فَلْيُطْلُ عُمُرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي مَرٍّ
وَمُقِيمًا بِهَا لَمَاتَ غَرِيْبَا. (52)

وقال أبو الطيّب: وَهَكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيْبٌ حَيْثُمَا كَانَ. (53)

قال الجرجاني: "وبيت أبي الطيّب أجود وأسلم، وقد أساء أبو تمام بذكر الموت في المديح، فلا حاجة به إليه، والمعنى لا يختل بفقده، ومن مات في بلده غريبا فهو في حياته أيضا غريب، فأَيُّ فائدة في استقبال الممدوح بما يتطير منه!". (54)

ونلاحظ آليّة التّكثيف عند المتنبي في إجمال المعنى، واختصار الألفاظ كما أنّه يمثّل تجربة نفسية صادقة، وقد أفضت آليّة التّحويل هذه بعدا فنيا آخر لصورة الإبداع عند المتنبي، وكلّما جود الآخذ صورة المعنى المخترع وزاد في تجويده وإبداعه فقد يكون أحقّ به من مخترعه في نظر الجرجاني بناء على التطلّع لآفاق الإبداع الشعري.

ولم يحدّد الجرجاني موقع المتنبي بين الشعراء ممّا جعل موقفه غامضا وغير واضح، حيث جعل شعره في صدره الأول تابعا لأبي تمام، وفيما بعد واسطة بينه وبين مسلم يقول الجرجاني مشيرا لذلك: "لا تدّعي لأبي الطيّب طريقة بشار وأبي نواس، ولو ادّعيته فإمّا كنت تخادع نفسك أو تباهت عقلك، وإمّا أنت أحد رجلين: إمّا أن تدّعي له الصنعة المحضة فتلحقه بأبي تمام وتجعله من حزبه، أو تدّعي له فيه شركا وفي الطّبع حظا فإن ملت به نحو الصنعة فضل ميل صيرته في جنبه مسلم، وإن وفرت قسطه من الطّبع عدلت به قليلا نحو البحري". (55)

وقد رأى أحمد بدوي أنّ الجرجاني "لم يزدنا علما بمكان أبي الطيّب، ولكنّه شكّكنا في موضعه الحقيقي أين يكون". (56)

والذي يظهر - في اعتقادنا - أنّ شعر المتنبي شكلا مغايرا امتزج فيه الإبداع مع الطّبع، فجاءت معانيه مشاجا من عالم العقل والخيال والواقع، وأفرغت في سياق التّحمت فيه الألفاظ مع الوزن دون تكلف وتصنع.

وقد تأثّر الكثير من النّقاد بآراء الجرجاني الأدبية ومواقفه النّقدية؛ وتصدّر طليعة هؤلاء تلميذه اللّغوي عبد

القاهر الجرجاني (471هـ) الذي استدللّ بآرائه في "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز" وكان يتبسّح به إذا ذكره،

كما اقتفى ابن رشيق القيرواني (463هـ) الكثير من أقواله ففي تعريفه للشعر لم يخرج عمّا ذكره الجرجاني بقوله

الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطّبع والرّواية والذكاء، ثم تكون الدّربة مادة له وقوّة لكل واحد من

أسبابه". (57)

كما تأثر ابن خلدون (808هـ) بما ذكره الجرجاني من أثر الدرية في تكوين ملكة الشعر فقال: "ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحد القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم، وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ".⁽⁵⁸⁾ وبعد هذا العرض العام للآليات المعرفية التي اعتمدها القاضي الجرجاني في كتابه "الوساطة" تبين لنا قيمة الأفكار النقدية والأدبية التي اشتمل عليها الكتاب، كما أنها مثلت قفزة نوعية في دفع سير الحركة النقدية ورسم حدودها الفنية، وغلب على الجرجاني التوجه الفقهي في اعتماده على أسلوب القضاء والنظر في حال الخصمين وتبين الدعوى، وقد اشتمل كتاب الوساطة على الكثير من القضايا البلاغية واللغوية وبلغت الشواهد الشعرية "أربعاً وسبعين وتسعمائة وألف (1974شاهد) شعري، مما يدل على خصوبة الكتاب وقدرة مؤلفه على اكتساح مساحة شاسعة من شعرنا العربي القديم عبر أزمنته المتعاقبة، وكذا انفتاحه على الجديد والمحدث في الشعر سواء أعلق الأمر بالمشهور من شعراء المحدثين كأبي تمام (259 شاهد)، والبحري (97 شاهد)، وأبي نواس (58 شاهد)".⁽⁵⁹⁾

بالإضافة إلى الآيات القرآنية وتفسيرها، والأحاديث النبوية وتوجيهها، والأمثال والأعراف والعوائد، وغيرها من الأحداث التاريخية، وكل هذه الكنوز المعرفية لا تخرج -في نظرنا- عن حدود المنطلقات المعرفية التي أسس عليها الجرجاني مشروعه والمتمثلة في: الوساطة، والمقايسة، ومواقفه من القضايا الأدبية والنقدية.

6 خاتمة:

اشتمل كتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي الجرجاني (392هـ) على الكثير من القضايا النقدية والأدبية التي ساعدت على بناء رؤية موضوعية وفنية في شئدت صرح النقد الأدبي، وعالج الكتاب أكبر خصومة نقدية دارت رحاها حول شعر المتنبي (354هـ)، وتباينت آراء النقاد ما بين متعصب له ومتعصب عليه، فحاول الجرجاني أن يتوسط بين الفريقين فاتخذ من الوسطية فكرة جوهرية للمقارنة والإنصاف والموضوعية، واعتمد مبدأ "المقايسة" في معالجة القضايا التي أثارها المنتقدون كالسرقات والطبع والصنعة والغموض والإفراط وبعض المسائل اللغوية والبلاغية، وأثبت الجرجاني بالحجج المنطقية وجود هذه الاعتراضات والانتقادات عند الشعراء المتقدمين والمحدثين وكانت غايته من ذلك تحقيق مبدأ "المقايسة" وأن لكل شاعر حسنات وسقطات وأن العصمة منفية عن كل أحد، وطبيعة الموضوعية في النقد تقتضي الموازنة بينهما ليتّم تقويم الإنتاج الشعري، وتبين لنا من خلال البحث أن القاضي الجرجاني بنى مشروعه النقدي بإحكام فالوساطة تعني موقفاً بين طرفين، والمقايسة تقتضي المقارنة والموازنة بين هذين الطرفين، ومجال هذه المقايسة تلك القضايا النقدية والأدبية المتنازع عليها، ومن خلال عرض الجرجاني للقضايا ومناقشتها تبين لدينا مدى نجاح المقايسة في تحقيق الموضوعية وإضاءة مسار النقد الفني

الذي ينبغي عليه أن ينسلخ من الذاتية والرؤية أحادية الجانب، كما ساهمت المقايضة على تفعيل مبدأ "إلغاء العصبية للمتقدم" وتسلط الضوء على الإبداع فقط، وتظلّ المقايضة مرتعا خصبا للباحثين في ميدان الفكر الأدبي. ويبقى كتاب الوساطة محلّ استقطاب الباحثين والدارسين لاسيما في تقويم تلك الأحكام التي أصدرها القاضي الجرجاني في ظلّ المقايضة ومدى ارتباطها بآفاق النقد الحديث وتطلّعات المدارس النقدية كالبنوية والسيميائية ونظريات تحليل الخطاب.

الهوامش:

- ¹ - (الثعالبي) أبو منصور، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى: 1420هـ-2000م، ج: 3، ص: 33.
- ² - (الحموي) ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، (د،ت)، ج: 1، ص: 477.
- ³ - (الثعالبي) أبو منصور، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج: 3، ص: 34.
- ⁴ - الجرجاني (علي بن عبد العزيز)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل وعلي البحاي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى: 1427هـ - 2006م، ص: 12-13.
- ⁵ - (ابن فارس) أبو الحسن أحمد؛ معجم مقاييس اللغة؛ تحقيق: إبراهيم شمس الدين؛ دار الكتب العلمية؛ بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1420هـ - 1999م، (باب الواو والسّين وما يثُلثهما)، ج: 2، ص: 411.
- ⁶ - (الفيروز آبادي) مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، باب (الطاء)، فصل (الواو)، ص: 753.
- ⁷ - (الجرجاني) علي بن محمد بن علي، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة: 1418هـ - 1998م، ص: 311.
- ⁸ - محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البحاي، مقدّمة تحقيق الوساطة، ص: (ج - د).
- ⁹ - (ابن قتيبة)، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، (د،ط)، 1966م، ج: 1، ص: 63.
- ¹⁰ - الجرجاني (علي بن عبد العزيز)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص: 14.
- ¹¹ - المصدر السابق، ص: 11.
- ¹² - المصدر السابق، ص: 59.
- ¹³ - محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ومنهج البحث في اللغة والأدب، نخضة مصر، (د،ط): 2003م، ص: 250.
- ¹⁴ - محمد التنوحي، المعجم المفصّل في اللغة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1419هـ - 1999م، ج: 2، ص: 142.
- ¹⁵ - نجوى صابر، الذوق الأدبي وتطوره عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري، دار الوفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى: 2006م، ص: 189.
- ¹⁶ - (ابن فارس) أبو الحسن أحمد؛ معجم مقاييس اللغة؛ تحقيق: إبراهيم شمس الدين؛ دار الكتب العلمية؛ بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1420هـ - 1999م، (باب القاف والواو وما يثُلثهما)، ج: 2، ص: 377.
- ¹⁷ - علي بن محمد الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى: 2003م، ج: 3، ص: 237.

- 18- ابن منظور (محمد ابن مكرم)، لسان العرب، تحقيق: رشيد القاضي، دار صبح يسوف، بيروت لبنان، الطبعة الأولى: 1427هـ-2006م، (باب : الشين، فصل : الهاء) ، ج : 07 ، ص : 19-20.
- 19- (التلمساني) محمد بن أحمد، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1417-1996م، ص : 121.
- 20- أميل يعقوب وبسام بركة ومي شيخاني، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم للملايين، بيروت ، الطبعة الأولى: 1987م ، ص : 370.
- 21- أميل يعقوب وبسام بركة ومي شيخاني، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ؛ ص : 55.
- 22- (المتنبي) أبو الطيب أحمد بن الحسين، الديوان، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، (د،ط): 1407هـ-1986
- ج : 04 ، ص : 151.
- 23- (الجرجاني) علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص : 364.
- 24- المصدر السابق، ص : 151.
- 25- (طرفة ابن العبد)، الديوان، دار صادر، بيروت، (د،ط)، 1380هـ-1961م، ص : 18. جاء في الديوان : أمّا الملوّك فأنت اليوم الأمّهم لؤمّا.
- 26- كمال الدين الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق: حسن محمد، دار الكتب، بيروت: الطبعة الأولى: 1988، ج:1، ص: 141 - 142.
- 27- (البغدادى) عبد القادر بن عمر؛ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب؛ تحقيق: محمد نبيل وإميل يعقوب؛ دار الكتب العلمية؛ لبنان؛ الطبعة الأولى: 1418هـ-1998م، ج:3 - ص: 188.
- 28- (الجرجاني) علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص: 354 - 355.
- 29- محمد الريدائي، الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام (تاريخها وتطورها وأثرها في النقد العربي القديم)، دار الفكر، دمشق، سوريا، (د،ط)، (د،ت)، ص : 275.
- 30- محمد مصطفى هدارة، مشكلة السرقات في النقد العربي دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الأنجلو المصرية، (د،ط): 1957م، ص: 137.
- 31- (الجرجاني) علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص : 18.
- 32- محمود السمرة، القاضي الجرجاني الأديب الناقد، منشورات المكتب التجاري، بيروت، الطبعة الثانية: 1979م، ص : 169.
- 33- (الجرجاني) علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص: 413.
- 34- المصدر السابق، ص: 33 - 34.
- 35- المصدر السابق، ص: 45.
- 36- المصدر السابق، ص: 45.
- 37- المصدر السابق، ص : 62.
- 38- المصدر السابق، ص: 63.

- 39- أحمد أحمد بدوي ، القاضي الجرجاني ، دار المعارف ، مصر ؛(د،ت) ؛(د،ط)، ص : 66.
- 40- (الجرجاني) علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص: 97.
- 41- المصدر السابق، ص: 15.
- 42- المصدر السابق، ص: 15-16.
- 43- أحمد أحمد بدوي، القاضي الجرجاني، دار المعارف، مصر، ص: 51.
- 44- (الجرجاني) علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص: 16.
- 45- المصدر السابق، ص: 25.
- 46- محمود السمرة، القاضي الجرجاني الأديب الناقد، ص : 142.
- 47- المصدر السابق، ص: 64.
- 48- (الآمدي) الحسن بن بشر بن يحيى، الموازنة بين أبي تمام والبحري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت، (د،ط) ؛(د،ت)، ص: 131.
- 49- المصدر السابق، ص : 184.
- 50- المصدر السابق، ص: 183.
- 51- (أبو تمام) حبيب بن أوس، الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، لبنان، (د،ط): 1427هـ-2007م، ج: 01 ، ص: 94. (رواية الديوان : عَزَيْتُهُ الْعُلَا عَلَى كَثْرَةِ النَّاسِ ...).
- 52- (المتنبي) أبو الطيّب أحمد بن الحسين، الديوان، شرح عبد الرحمن البرقوقي، ج : 04 ، ص : 354.
- 53- (الجرجاني) علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص: 219.
- 54- المصدر السابق، ص: 48.
- 55- أحمد أحمد بدوي ، القاضي الجرجاني ، دار المعارف ، مصر ؛(د،ت) ؛(د،ط)، ص : 69.
- 56- (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص: 15 - (ابن رشيق القيرواني) أبو علي الحسن ،العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد أحمد عطا دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،الطبعة الأولى: 1422_2001م، ج: 1 - ص : 78.
- 57- (ابن خلدون) عبد الرحمن؛ تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلميّة، لبنان ،الطبعة الثاني: 1424هـ - 2003م، ج: 1 - ص: 656.
- 58- عبد الرزاق صالح، الشاهد الشعري في النقد والبلاغة، عالم الكتب الحديث، اردن، الأردن، الطبعة الأولى: 1431هـ- 2010م، ص: 70.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم (رواية ورش عن نافع).
- (الآمدي) الحسن بن بشر بن يحيى، الموازنة بين أبي تمام والبحري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت، (د،ط) ؛(د،ت).
- أميل يعقوب وبسام بركة ومي شيخاني، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى: 01 : 1987م.

- (البغدادي) عبد القادر بن عمر؛ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب؛ تحقيق: محمد نبيل وإميل يعقوب؛ دار الكتب العلمية؛ لبنان؛ الطبعة الأولى: 1418هـ - 1998م، ج: 3 - ص: 188.
- (التلمساني) محمد بن أحمد، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1417-1996م.
- (أبو تمام) حبيب بن أوس، الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، لبنان، (د،ط): 1427هـ - 2007م.
- (الثعالبي) أبو منصور، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى: 1420هـ - 2000م.
- (الجرجاني) (علي بن عبد العزيز)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل وعلي البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى: 1427هـ - 2006م.
- (الجرجاني) علي بن محمد بن علي، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة: 1418هـ - 1998م.
- (الحموي) ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، (د،ت).
- (ابن خلدون) عبد الرحمن؛ تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الثانية: 1424هـ - 2003م.
- (ابن رشيق القيرواني) أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد أحمد عطا دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1422 - 2001م.
- (طرفة ابن العبد)، الديوان، دار صادر، بيروت، (د،ط)، 1380هـ - 1961م.
- علي بن محمد الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى: 2003م،
- عبد الرزاق صالحي، الشاهد الشعري في النقد والبلاغة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، الطبعة الأولى: 1431هـ - 2010م.
- (ابن فارس) أبو الحسن أحمد؛ معجم مقاييس اللغة؛ تحقيق: إبراهيم شمس الدين؛ دار الكتب العلمية؛ بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1420هـ - 1999م.
- (الفيروز آبادي) مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: نصر الهوريني المصري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: 1428هـ - 2007م.
- (ابن قتيبة)، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، (د،ط): 1966م.
- كمال الدين الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق: حسن محمد، دار الكتب، بيروت: الطبعة الأولى: 1988.
- ابن منظور (محمد ابن مكرم)، لسان العرب، تحقيق: رشيد القاضي، دار صبح يسوفت، بيروت لبنان، الطبعة الأولى: 1427هـ - 2006م.
- محمد الربادوي، الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام (تاريخها وتطورها وأثرها في النقد العربي القديم)، دار الفكر، دمشق، سوريا، (د،ط)، (د،ت).

- محمود السمرة، القاضي الجرجاني الأديب الناقد، منشورات المكتب التجاري، بيروت، الطبعة الثانية: 1979م.
- محمد مصطفى هدارة، مشكلة السرقات في النقد العربي دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الأنجلو المصرية، (د،ط): 1957م.
- محمد التنوحي، المعجم المفصل في اللغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: 1419هـ-1999م.
- محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ومنهج البحث في اللغة والأدب، نخضة مصر، (د،ط): 2003 م،
- نجوى صابر، الذوق الأدبي وتطوره عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري، دار الوفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى: 2006م.